# الفصل الثالث عشر

## بين العراق والشام

تحدّث الناس فى مختلف الأقطار بفعال خالد بن الوليد فى العراق العربى ، وبانتصار المسلمين على الفرس في جميع المواقع التى التحموا فيها . وكان لهذه الأنباء من الصدى فى الشام وفى باديته ما نبّه عاهل الإمبراطورية الرومية الشرقية فى مستقره ببُزَنْطية وما أثار تفكيره . فالغساسنة الذين يقيمون تحت كنفه بالشام عرب كاللخميين و بنى تَغْلِب وإيَاد والنَّمِر وغيرهم ممن يقيمون على حدود العراق و يتغلغلون بين النهرين فيه . وقبائل بنى بكر و بنى عُذْرة و بنى عَدْوان وبنى بَحْرة تقع منازلهم على تخوم الغساسنة و بادية الشام . أليس طبيعيًّا أن يفكر المسلمون فى غزو الشام العربى كما فكروا فى غزو العراق العربى ؟ ! هذا أمر يجب الاحتياط له والحذر منه . و يجب لذلك تحصين التخوم بين الشام و بلادِ العرب وجعلها من المَنَعَة بحيث تصد المسلمين عن التفكير في العدوان على أية ناحية من الإمبراطورية الرومية .

حذر الروم من المسلمين

إلى هذا الاتجاه انصرفت سياسة الروم ، فانقلبت من الطمأنينة إلى الحذر . لقد كان همّ المسلمين فى عهد الرسول أن يحصّنوا تخوم العرب في الشمال مخافة عدوان الروم عليهم بتحريض اليهود والنصارى الذين أجلاهم الدين الجديد عن شبه الجزيرة . أمّا اليوم فالروم هم الذين يُعْنَون بتحصين تخومهم فى الجنوب مخافة عدوان المسلمين عليهم بقوة إيمانهم و بما كفل لهم هذا الإيمان من نصر وفتح .

تفكير أبى بكر فى غزو الشام

لم يكن هذا الخاطر الذى أثار هواجس هِرَقْل بعيداً عن تفكير أبى بكر ، بل كان يتردد فى نفسه مذ بدأت طلائع النصر تساير أعلام المسلمين فى حروب

الردّة . لـكنه كان يتردد فى تنفيذه قبل الفراغ من هذه الحروب ، خشية انتقاض العرب عليـه وثورتهم به كرة أخرى . فلما هوّن المثنّى بن حارثة الشيبانى أمر العراق ، ولمّا انطلق خالد بن الوليد يكتسح أمامه الفرس وأهل البادية و يضع يده على الحيرة و يجعلها عاصمته ، ازداد أبو بكر تفكيراً فى أمر الشام . إن به من قبائل العرب مثل ما بالعراق ، وقد انضمت بعض قبـائل العراق إلى جيوش المسلمين وحاربت فى صفوفهم جيوش كسرى مع بقـائها على نصرانيتهـا . لا جَرَمَ أن تفعل قبـائل الشام فعلها . فالروم حكام على الشام ، و بينهم و بين قبائل البـادية المقيمة به من اختـلاف الجنس واللغة ما بين الفرس والعرب على شواطئ دجلة والفرات . فإذا تقـدّم العرب فى الشام وتغلبوا على جنود الروم انضم عرب الشام إلى أبناء عمومتهم من أهل شبه الجزيرة . ومن شأن هذا الانضمام أن يزيد المسلمين طمأنينة إلى النصر على عدوّهم ، وأن ينتهى بهم إلى الاستقرار فى هذه البلاد الممرعة الخصب مع بنى عمومتهم . فإن أسلم هؤلاء يوماً كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

موقف الروم والعـرب على تخوم الشام

وزال كل تردد من نفس أبى بكر حين سلّمت دُومة الجندل وفتحت أبوابها للمسلمين . لـكن انشغال قوات المسلمين بالعراق و بقتال المرتدين فى الجنوب من شبه الجزيرة جعله يؤثر أن يقف من الروم موقف المدافع ، فلا يبدؤهم بقتال إلا أن يبدءوه به . ولقد كانت أوامره إلى قوّاده على تخوم الشام صريحة فى هذا المعنى كل الصراحة . ولم تكن الروم من جانبها لتجازف باجتياز تلك التخوم وهم يرون المسلمين ينتصرون فى كل مكان . بذلك ظل الفريقان على حذر بعضهم من بعض ، وأكبر همّ هؤلاء وأولئك ألا يشتبكوا فى قتال .

وزاد الرومَ إيثاراً لهـذا الموقف أن القوّات التى أوفدها أبو بكر عقب بيعته إلى شمال شبه الجزيرة لقتال من ارتد ولحماية التخوم بقيت سليمة لم يُصبها أذى . فقد عادت القبائل هناك إلى سلطان المدينة دون أن يستحرّ قتال ، اللهم إلا دومة

الجندل ، إذ أصرّت على انتقاضها فقاومت عياضاً وظلّت متحصنة منه حتى فض ابن الوليد حصونها . وكانت قوّات الروم من أهل فلسطين ومن عرب البادية المقيمين على حدود الحضر ؛ فلم يكن يدفعها إلى مقاتلة العرب وازع نفساني يحبب إليها الموت انتصاراً لحقّ تُعلى كلمته ، أو لمثل أعلى تحرص على تحقيقه .

خالد بن سعيد قائد المسلمين على تخوم الشام

كان قائد المسلمين على هذه التخوم خالد بن سعيد بن العاص . قيل إن أبا بكر لمّا عقد الألوية لقتال أهل الردّة عقد لخالد فيمن عقد ، فنهاه عمر بن الخطاب عن تأميره ، وقال له : « إنه لمخذول ، وإنه لضعيف التروئة » ؛ وما زال يحرّضه على عزله حتى جعله أبو بكر ردءاً بتَيْماء على تخوم الشام ، ولم يجعله على من يقاتلون المرتدين .

ونزل خالد تيماء وقد أمره أبو بكر ألّا يبرحها ، وأن يدعو القبائل التى حولها إلى الانضمام إليه إلا من ارتد منهم ، وألّا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره . ونفّذ خالد أمر الخليفة ؛ فاجتمعت إليه جموع كثيرة جعلت عسكره عظيما . وترامت إلى الروم أنباء هذه الجموع على تخومهم ، فلم يبق لدى هِرَقْل ريب فى وجوب دفعهم ؛ ولهذا الأمر اتخذ عدته . وترامت إلى خالد بن سعيد من ذلك أنباء سارع فبعث بها إلى المدينة مشفوعة برأيه أن يأذن الخليفة له فى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام ، مخافة أن يأخذوه ومن معه على غرة .

رسالته الأولى إلى أبى بكر

فكّر أبو بكر فى رسالة خالد بن سعيد وطال تفكيره . إن الأنباء الواردة من جنوب شبه الجزيرة حسنة كلها . لقد قضى عكرمة بن أبى جهل والمهاجر بن أبى أمية على المرتدين هناك . وعما قريب يرجع عكرمة بجيوشه ويظل المهاجر أميراً على اليمن . ومتى عادت جنود المسلمين كان إرسال المدد إلى الشام يسيراً . لكن ! أوتكفى هذه الجنود لقتال الروم ولغزو الشام وعند الروم من العدد والعُدّة

ما لا يجهله أبو بكر ، وما تغلَّبَ هرقل به من قبل على فارس ؟ أو ليس من الخير أن يستعين بمن بقى على إسلامه من أهل الجنوب ليبعثهم إلى الشام ! فإذا ذهبوا فلن يقاوم الروم أكثر مما قاوم الفرس فى العراق العربى .

أبو بكر يشاور أهل الرأي فى غزو الشام

وأصبح يوماً فدعا إليه عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبى وقّاص وأبا عبيدة بن الجرّاح ومُعاذ بن جبل وأبىّ ابن كعب وزيد بن ثابت وجِلّة المهاجرين والأنصار من أهل بَدْر وغيرهم ، فدخلوا عليه ، فتحدّث إليهم وذكر لهم أن رسول الله كان عوّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه ، واختار له ما لديه . « والعرب بنو أم وأب . وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين » . ثم طلب إليهم رأيهم ؛ فقال عمر : « والله ما استبقْنا إلى شىء من الخير قطّ إلا سبقتنا إليه . قد والله أردتُ لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد . سَرِّبْ إليهم الخيل فى إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ؛ فإن الله عز وجل ناصر دينه ومقرُّ الإسلام وأهله ومنجز ما وَعد رسولَهُ » .

رأى عبد الرحمن ابن عوف

على أن عبد الرحمن بن عوف كان أدنى إلى الحذر وأشدَّ اتقاء للمغامرة . قام فقال : « ياخليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ! حدٌّ حديد ، وركن شديد ! والله ما أرى أن تُقحم الخيل عليهم إقحاماً ، ولكن تبعث الخيل فتُغير في أدانى أرضهم ، ثم تبعثها فتغير فترجع إليك ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضرَّ بعدوّهم وغنموا من أدانى أرضهم فقووا بذلك على قتالهم . ثم تبعث إلى أقاصى أهل اليمن و إلى أقاصى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعاً . فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك ، و إن شئت بعثت على غزوهم غيرك » .

جلس ابن عوف بعد هذا الكلام فسكت الناس وسادت هنيهة صمت اتجه بعدها أبو بكر إلى الحاضرين يسألهم : « ماذا ترون رحمكم الله ؟ » . وتكلم عثمان بن عفّان فقال : « أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين ، شفيق عليهم . فإن رأيت رأيا فيه لهم رشد وصلاح وخير فاعْزِمْ على إمضائه ، فإنك غير ضنين ولا متّهم عليهم » . وأقر الحاضرون جميعاً رأى عثمان وقالوا : « ما رأيتَ من رأى فأَمْضِه ، فإنا سامعون لك مطيعون ، لا نُخالف أمرك ولا نتّهم رأيك ، ولا نتخلّف عن دعوتك وإجابتك » . فقام أبو بكر يدعو القوم للتجهُّز إلى غزو الروم بالشام ، ويقول : « فإني مؤمِّر عليكم أمراء وعاقدٌ لهم عليكم ، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسُنْ نيتكم وسيرتكم ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

موقف المسلمين من الدعوة لغزو الشام

تُرى أتحمّس الناس لهذه الدعوة ؟ أأجاب الخليفة منهم أحد يطلب الجهاد ؟! لقد أخذتهم هيبة الروم فسكتوا . عند ذلك صاح فيهم عمر : « ما لكم يامعشر المسلمين لا تُجيبون خليفة رسول الله إذ دعاكم لِما يحييكم ؟ » . ونبّهت القوم هذه الصيحة فرضوا الجهاد وإن آثروا أن يستعين الخليفة على عدوّه بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً [1] .

لا عجب وذلك موقف المسلمين أن يطول تفكير الصدِّيق فيه ، وأن يُشْغَل به عن كل ما سواه . كان جرير بن عبد الله ممن خرج مع خالد بن سعيد إلى الشام ، فاستأذن خالداً إلى أبي بكر ليكلمه في قومه وليتخلّصهم وليجمعهم له ، وكانوا أوزاعا في العرب . وأذِن له خالد ، فقدِم على أبي بكر فذكر له عِدَةً من النبي وأتاه على العِدَة بشهود وسأله إنجازها . فلما سمع أبو بكر حديثه غضب وقال له : « ترى شغلنا

---

(١) يذكر الأزدي ، على خلاف مع الطبرى وابن خلدون وابن الأثير ، أن خالد بن سعيد كان حاضرا هذا المجلس ، وأنه كان أول من أجاب إلى التجهز مع أهله ومن تبعه . ونحن نؤثر رواية الطبرى أن خالدا كان بتيماء ، وأنه لم يحضر هذا الاجتماع .

وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين فارس والروم ، ثم أنت تكلّفنى التشاغل بما لا يُغنى عما هو أرضى لله ورسوله ! دعنى وسِرْ نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله فى هذين الوجهين » . وسار جرير حتى قدم على خالد بالحيرة .

موقف أبى بكر من الأحداث المحيطة به

ولا عجب كذلك إذا انصرف تفكير الصدِّيق إلى هذه الحرب التى نشبت منذ بويع ؛ فقد جعلت تزداد على الأيام دقة وخطراً ، وتقتضى العناية بها والسهر عليها . فهذه الجيوش المنتشرة بالعراق ، والقائمة على تخوم الشام ، أفى حاجة هى إلى المدد ؟ وأيها أشدّ إلى المدد حاجة ؟ وهؤلاء المقيمون بالمدينة ومكة والطائف ممن ذهب أهلوهم إلى صفوف القتال ، أيعوزهم شيء ؟ ! وقبائل العرب من الشمال إلى الجنوب ما شأنها ؟ وما عواطفها إزاء المدينة و إزاء الخليفة ؟ والأنباء الواردة من ميادين القتال بالنصر تارة ، وبالعجز طوراً كشأن عياض بن غنم بدُومة ، بأى شيء تقابل ، وعلى أى نحو تذاع فى الناس ؟ ! كان أبو بكر فى شغل بهذا كله و بما يتصل به . ولئن كان أهل الرأي حوله موضع ثقته واطمئنانه ، لقد كان هو المرجع الأخير وصاحب الرأى النافذ فى هذه الأمور جميعاً . تلك أيام حرب إذا لم يوحَّد فيها التوجيه خيف الاضطراب وسوء الأثر . والخليفة هو المسئول الأول أمام الذين بايعوه عن كل مايقع ، فعليه التبعة العظمى أمام الله وأمام ضميره وأمام الناس .

وكان شعور أبى بكر بجسامة هذه التَّبِعة عظيما ، وذلك مادعاه للمُقام بالمدينة منذ اشتدت حروب الردة ، كى يفرغ لشؤون الدولة لا يشغله شيء عنها . أمّا وقد تضاعفت هذه الشؤون وامتدت الحرب إلى فارس وأوشكت أن تمتد إلى الروم ، فقد نسي الرجل ما عداها ليتم له التفرّغ لها و إن فاته كل ما يرفّه عنه ؛ بذلك يكفل للمسلمين النجاح ، ولدين الله النصر ، سائراً دائما فى الطريق الذى رسمه رسول الله ، لا يتنكّبه ولا يحيد عنه .

كانت سياسة أبي بكر خير كفيل بالنصر والنجاح . فقد كان فى حكمه مثال العدل والرحمة مجتمعين ، كما كان العزمَ الذى لا تفلّ منه قوة ، ولا يعرف الوهن إلى ناحية من نواحيه مأتى . لم يلبث حين عادت بلاد العرب إلى دين الله أن ترك لكل منها من الاستقلال ما ترك لها رسول الله من قبل ، فلم يطلب إليها إلا الزكاة التي كانت تؤدّيها أيام النبي . وكانت الزكاة ينفق جانب عظيم منها فى شؤون هذه البلاد وعلى فقرائها بإشراف عمّاله الذين ولّاهم أمورها ، والذين كانوا على مثاله عدلا ونَصَفة . بذلك اطمأنت العرب جميعاً إلى عيشهم ، وزال كل خوف من انتقاضهم .

سياسة أبى بكر بعد حروب الردة وانتصار المسلمين بالعراق

ولم يكن أبو بكر يستبقى لنفسه من الزكاة أو من أخماس الفيء إلا ما فرضه المسلمون له ، ثم ينفق أكثرها فى تجهيز الجيوش للجهاد ، ويوزع ما بقى على الفقراء وأبناء السبيل وكل من له حق فى بيت مال المسلمين . وكان بيت المال فى دار أبي بكر بالسُّنْح ، فلما انتقل إلى المدينة نقله إلى داره بها . ورأى بعضهم ما يجىء من مغانم فارس ، فقال له : ألَا تجعل على بيت المال من يحرُسه ! ! قال لا ! ذلك أنه كان ينفق كل ما فيه فلا يبقى به ما يحتاج إلى حارس . ولم يقف أمر ذلك عند الزكاة وأخماس الفيء . فقد فُتح أثناء خلافته منجم للذهب فى بنى سُلَيم على مقربة من المدينة ، هو عرق الذهب الذى يستغلّ فى عصرنا الحاضر ، فكان أبو بكر يسوّى فى قسمه بين السابقين الأوّلين والمتأخرين فى الإسلام ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . وقيل له : «ألا تقدِّم أهل السبق على قدر منازلهم ؟» ؛ فقال : «إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يوفّيهم ذلك فى الآخرة ؛ وإنما هذه الدنيا بلاغ » .

أدّى هذا العدل بين الناس جميعاً إلى اطمئنانهم جميعاً . وأدى حزم أبي بكر وحمله تَبعة الأمر كاملة إلى مهابتهم إياه وإكبارهم له . كان عمر بن الخطاب أقرب المشيرين إلى قلبه وأرجحهم رأياً عنده ، وكان عثمان وعليٌّ وطلحة والزبير وغيرهم

موضع تقديره واحترامه ، لا يقطع فى أمر برأى قبل مشورتهم . لكنه لم يكن مع ذلك يُلقى على أحد منهم تبعة ، ولم يكن يتوارى وراء مشورتهم ليدفع عن نفسه لوماً . ولقد رأيته كيف خالف الجماعة فى بعث أسامة ، وكيف أبدى من الحزم وقوة العزم فى محاربة المرتدين ما جعل مشيريه كلهم يقرّون من بعد بسَداد رأيه و بعد نظره ؛ ثم رأيته كيف خالف ابن الخطاب فى خالد بن الوليد حين مقتل مالك بن نويرة ، وكيف كان يستخير الله في كل شيء ، فإذا خار له فى أمر لم يرجع عنه ولم يتراجع لأي اعتبار دونه .

تفرغه التام لشؤون الدولة

ولم يغيّر تزايد تَبِعاته من شظف عيشه ، بل زاده انصرافاً عن كل ما يرفّه به عن نفسه . كان حين مقامه بالسُّنح لا يأبى على نفسه ألواناً من الرّفْه تعينه على الحياة والجهد فيها ؛ فكان يغدو إلى المدينة وربما ركب فرسه وعليه إزار ورداء مُمَشَّق فيصلى بالناس ؛ وكان يستريح بالسُّنح أحياناً فيصلي عمر بهم . وكان يقيم بداره صدر النهار يوم الجمعة يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يذهب إلى المدينة يخطب الناس ويؤمّهم للصلاة . أما مذ أقام بالمدينة لتزايد أعباء الدولة فقد تمّ تفرغه لشؤون المسلمين وإن فاته ما يرفّه عنه . وأقام مع تزايد هذه الأعباء لا يتخذ لنفسه خادماً فى داره ولا فى أعمال الدولة . ثم كان يجلس فى المسجد حيث كان يجلس رسول الله ، يسمع للناس ويحدّثهم ، ويستشيرهم ويشير عليهم ، ويقضى فيما يعرض عليه من شتّى الشؤون .

وكان علي إيثاره الشظف شديدَ البر بالفقراء والضعفاء . كان يشترى الأكسية ويفرّقها على الأرامل فى الشتاء ، وكان يرعى الفقراء والمساكين بنفسه فى سرّ من الناس . كان عمر بن الخطاب يتعهّد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها ألفاها قد قُضيت حاجاتها . وترصّد عمر يوما ، فإذا أبو بكر هو الذى يكفيها مئونتها ، لم تصرفه عن ذلك الخلافة وجسامة تبعاتها . وقال عمر حين رآه : «أنت هو لعمرى !»

ولا حاجة إلى القول بأن مثال أبي بكر كان أسوة عماله فى سائر بلاد شبه الجزيرة ، وأن طمأنينة العرب إلى عدل الخليفة و إنصافه ، وإلى بره ورحمته ، وإلى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر فى نجاح سياسته .

عوامل النصر فى تقدير أبي بكر

وكان أبو بكر مطمئنًّا من جانبه إلى النجاح كل الاطمئنان . لقد وعد الله رسوله لينصرنّ دينه ، ووعد الله حقّ . وقد نصر الله المسلمين فى حروب الردّة ، وهاهى ذى جيوشهم بالعراق يسايرها النصر حيث سارت ، و يفيء النصر عليها من المغانم ما جعل قبائل العرب أشدّ على الحرب إقبالا . وقد رأيت ما استفاء المسلمون بالعراق . ولم يكن يرسل للخليفة من هذا الفيء إلا خمسه ، أمّا أربعة الأخماس فكانت توزّع بين الجند فى ميادين القتال . وكان لأهل الجند فى مختلف القبائل من حظ رجالهم نصيب يُغرى من تخلّف على أن يخفّ إلى الميدان ليكون له ولأهله مثله . هذا إلى ما غرسه الإسلام فى النفوس من حب الاستشهاد . لذلك كان أبو بكر مطمئنًّا إلى إقبال القبائل على الحرب إذا دعيت إليها ، لا تَضَنّ عليها بتضحية ، بل تخف إليها سراعاً يجذبها حب الاستشهاد ، وتغريها مغانم النصر .

وكان أبو بكر يعلم ما للحرص على الاستشهاد فى نفس الأكثرين من أثر لا يقاس إليه إغراء الفيء . وهل نسيت صيحات الأبطال الذين اندفعوا إلى الوطيس فى معركة اليمامة ، لا يشك أحدهم فى أنه ملاقٍ ربه ، وهو بهذا اللقاء سعيد كل السعادة ! وحبّ الاستشهاد هو الذى أملى على خالد بن الوليد ما كتبه إلى هُرْمُز و إلى غيره من الفرس يقول لهم : « لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » . وهم يُقبلون على الاستشهاد لأنه طريق الجنة ؛ إذ يغفر الله للمجاهد فى سبيله كل ذنوبه . وقد كان أحدهم يرى صاحبه يتخطفه الموت من صفوف القتال فيرى فى استشهاده آية الرضا من الله عنه ، ويتمنى لنفسه مثل هذا الحظ من رضا ربه . قوم ذلك حرصهم على الموت طبيعيّ أن توهب لهم الحياة فى أسمى

مكان من العزّ والسؤدد ، وأن يطمئن خليفة رسول الله إلى نصرهم ، وأن يبعثهم إلي الشام يفتحونه كما فتح إخوانهم العراق .

على أن إغراء الفيء لم يكن بالأمر الذى يستهان به . فهو فى فطرة البدوى منذ خلقه ، ولن يزال فى فطرته أبد الدهر . وقد رأيت خالد بن الوليد حين وقف بعد غزاة أُلَّيْس بالعراق يقول لجنده : « إنه إذا لم يكن فى العراق إلا هذا الثراء الضخم وهذا الفيء الذى يعدّ فى بلاد العرب حلماً لكفى مغرياً بالحرب » . ولقد كانت القبائل التى ارتدت تعضّ أصابعها ندماً على ما فعلت مما حرمها الاشتراك فى حروب العراق . والذين أقاموا على إسلامهم فى أنحاء شبه الجزيرة كثيرون . ولن يتردد هؤلاء فى إجابة الدعوة إلى الجهاد متى وجّهها الخليفة إليهم ، ولن يكونوا إذا غزوا الشام إلا أبطالا فاتحين .

كتاب أبى بكر إلى أهل اليمن

لذلك كله لم يتغيّر عزم أبى بكر على غزو الشام حين دعا القوم إلى التجهز إليه فسكتوا متأثرين بقول عبد الرحمن بن عوف : « إنها الروم و بنو الأصفر ، حدٌّ حديد وركن شديد ! » ، بل بدأ يستنفر الناس ، وكتب إلى أهل اليمن يقول لهم : « أما بعد ، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خِفافاً وثقالا ؛ قال : « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » . فالجهاد فريضة مفروضة ، وثوابه عند الله عظيم . وقد استنفرنا مَنْ قِبَلَنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، فسارَعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا وحسنت فى ذلك نيّتهم وعظمت فى الخير حِسْبتهم ، فسارِعوا عباد الله إلى فريضة ربكم » .

لقيت هذه الدعوة أذناً سميعة . فما كاد رسول الخليفة يتلوها حتى خف ذو الكَلاع الحميرىّ إلى فرسه وسلاحه ونهض في قومه ومن عسكر معه من جموع اليمن وسار يطلب المدينة . كذلك خفّ قيس بن هُبَيرَةَ المرادىّ فى مَذْحِج ، وجُندَب بن عمرو الدوسىّ في الأزد ، وحابس بن سعد الطائىّ فى طيِّئ .

بَيْنَا كان رسول أبي بكر إلى اليمن قد بلغها وأقام يتحدث إلى أهلها ، وبَيْنَا كان أهل اليمن فى استعدادهم ومسيرتهم ، كان أبو بكر يستنفر إليه مَنْ حوله من المهاجرين والأنصار وأهل مكة وغيرهم يجمعهم ليوفدهم إلى الشام .

وقد اختلفت الروايات : متى بدأ أبو بكر يسيِّر هذه الجيوش ، وأى جيش كان أولها ، ومَنْ هم الأمراء الذين اجتمعوا إليه ، ومَن من الأمراء أقام حيث هو ثم توجه إلى الشام طوعاً لأمر الخليفة . واضطراب الروايات فى أمر الشام يزيد على اضطرابها فى فتح العراق وفى حروب الردّة[1] .

مسيرة الجيوش إلى الشام

والكثير من هذه الروايات يذهب الى أن أوّل جيش سار إلى الشام إنما سار بعد أن عاد أبو بكر من حجّه فى آخر السنة الثانية عشرة وأول السنة الثالثة عشرة من الهجرة . وتذهب روايات أخرى إلى أن أبا بكر سيَّر خالد بن سعيد بن العاص إلى حدود الشام حين سير خالد بن الوليد إلى العراق فى أول السنة الثانية عشرة . والراجح عندى أن خالد بن الوليد ذهب إلى العراق فتولّى القيادة العامة فيه على المثنّى ومن معه قبل أن يفرغ المسلمون من حروب الردّة فى اليمن وكِندة وحضرموت ، وأن خالد بن سعيد ، إن كان قد ذهب فى هذا الوقت أو ذهب قبله ، فإنما ذهب لحماية التخوم لا للغزو . والراجح عندى كذلك أن أبا بكر لم يفكر فى غزو الشام إلا بعد أن تم النصر للمسلمين فى حروب الردّة باليمن وما حولها ، وبعد أن دخل ابن الوليد الحيرة واطمأن بها ، وبعد أن فتحت دُومة أبوابها فصار طريق وادى سرحان إلى الشام آمناً بفتحها .

يؤيد هذا الرأى ما سبق أن ذكرناه من استنفار أبى بكر قبائل اليمن ، وما

---

(١) فى الطبري روايات عدة . وفى البلاذرى روايات يتفق بعضها مع بعض روايات الطبري ، ويختلف بعضها كل الاختلاف . والأزدى يروي غير روايات الطبرى والبلاذرى . والواقدى يخالف هؤلاء فى أمور ويتفق معهم فى أمور . أما ابن الأثير وابن خلدون فأقرب إلى الطبري حتى ليحسب الانسان أنهما أخذا عنه .

كان ليستنفرها قبل القضاء على الردّة فيها . ثم إن عكرمة بن أبي جهل وذا الكَلاع الحميريّ لم يقيما باليمن بعد أن اطمأن الأمر فى ربوعها ، بل ذهبا مع المهاجر بن أبي أمية للقضاء على الردّة بكندة وحضرموت . فلما اطمأن أمر الجنوب كله وآن لعكرمة أن يعود إلى المدينة سرّح الجند الذين جاهدوا معه ، ثم تولّى قيادة جيش آخر تألّف بديلاً من جيشه . ومن اليسير عليك أن تقدُر ما يستغرقه العود من اليمن إلى المدينة ، ثم السفر من المدينة إلى الشام ، وأنت تعلم أن الطريق بين مكة والمدينة تقطع على ظهور الإبل فى أكثر من عشرة أيام ، وأن العير كانت تَطَّرِد فى ذلك الزمن إلى الشام شهراً مقبلة وشهراً مدبرة .

أول أمير على جند المسلمين إلى الشام

ولقد اختلفت الروايات كذلك : أى أمراء الجند ذهب إلى الشام أول ما فكر أبو بكر فى غزو الروم ؟ قيل إن خالد بن سعيد بن العاص الأمويّ كان هذا الأمير . وقد ذكرنا فيما سلف أن خالداً إنما ذهب أول حروب الردّة رِدءًا بتيماء على تخوم الشام . وتجرى رواية غير هاتين بأن خالداً كان باليمن من قِبَل رسول الله ، وأنه قدِم إلى المدينة بعد شهر من وفاة النبى ، فلما رأى عليّ بن أبي طالب وعثمان ابن عفان قال لهما : « يابنى عبد مناف ، لقد طِبْتم نفساً عن أمر يليه غيركم ! » . فلما وجّه أبو بكر الجنود إلى الشام جعل خالد بن سعيد عليها ؛ فقال له عمر : « أتُؤَمِّره وقد صنع ما صنع وقال ما قال ! » ولم يزل به حتى عزل خالداً وأمّر يزيد بن أبي سفيان . وفى رواية أن عمر قال لأبى بكر فى شأن خالد : « إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصّب » . وقيل إن خالداً لم يذهب أميراً و إنما ذهب فى جيش أبي عبيدة ابن الجرّاح . ونحن نرجح ، رغمَ هذا الاضطراب فى الروايات ، أن خالداً ذهب ردءًا بتيماء ، وأنه أقام بها ، وأنه لم يكن بالمدينة حين استنفر أبو بكر الناس لقتال الروم ، وأن أبا بكر إنما استنفر الناس تلبية لنداء خالد حين بعث إليه يستمده ويذكر له من أنباء الروم وتحرُّكهم ما حرّك الخليفة لغزو الشام .

ولقد كان للروم كل العذر فى أن يتحركوا وأن تزداد حركتهم نشاطاً . فالأنباء كانت تصل إليهم تَتْرَى بانتصار المسلمين فى العراق و بانقضاء الثورة التى كانت قائمة فى بلاد العرب . وهم لم ينسوا مجازفة محمد وأصحابه بالغارة عليهم والانتقاص من أطرافهم وموادعة القبائل المقيمة على تخومهم . وها هم أولاء أتباعه يقيمون اليوم على تلك التخوم ، وقد تحدّثهم أنفسهم باجتيازها . لذلك دعا الروم الغسانيين وغيرهم من القبائل المقيمة ببادية الشام ليقفوا سدًّا منيعاً فى وجه المسلمين . واجتمع من هذه القبائل عدد عظيم لا يقل عمن اجتمع حول خالد بن سعيد . ووقف الجمعان ، هذا فى أرض العرب وذاك فى أرض الشام ، وكلٌّ يتربّص بصاحبه الدوائر . وفيما هم كذلك كانت أنباء خالد بن الوليد تدوّى فى جو الفرس والروم والعرب كله . فالأنبار تفتح أبوابها ، وعين التمر يقتل مقاتلتها وتسبى نساؤها ، وجنود المسلمين يغنمون ما شاء الله أن يغنموا . أفيبقى إخوانهم فى الدين بمنزلتهم من تيماء لا يقتحمون الشام كما اقتحم ابن الوليد وجيوشه العراق ! !

أول فتح الشام

وكتب خالد بن سعيد إلى الخليفة كرةً أخرى . كتب إليه باجتماع الروم ومن نفر إليهم من بَهْراء وكَلْب وتَنُوخ ولَخْم وجُذَام وغَسّان ، واستأذنه فى منازلتهم . وكان أبو بكر يعدّ إذ ذاك جيوشه لغزو الروم ؛ لذلك كتب إلى خالد بن سعيد يقول : « أقْدِمْ ولا تُحجم واستنصر الله ! » .

وكانت هذه الكلمات أول فتح الشام .